

أدب الحوار وآفاقه في السنة المطهرة



www.balagh.com

الحمد لله جعل الحوار أسلوباً ومنهجاً مرضياً للوصول إلى الحق الذي يرضاه، والصلة والسلام على الحبيب المصطفى الذي سلك طريق الحوار في دعوته، وسن بذلك منهجاً للدعاة من بعده، والصلة موصولة إلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد..

فالحوار ظاهرة إنسانية عالمية، وهي سنة إلهية نظراً لتفاوت البشر في عقولهم وأفهامهم وأمزاجتهم، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَّ الْوَنْ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ...)([1]).

ونتيجة لهذا الاختلاف في الرأي جاء الحوار وسيلة للوصول إلى الحق والصواب، وقد ضرب الله لنا المثل برجلين تحاورا، حيث كان لأحدهما جنتان مثمرتان وفيهما نهر، واغتر بذلك فحاور صاحبه المتواضع فأخبرنا الله عن حوارهما، فقال تعالى: (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَرَاهُ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ زَفَرًا)([2]), فكان جواب صاحبه: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِاللَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ زُبْطَفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)([3]).

وقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشتكى زوجها إلى رسول الله (ص) وهي تقول: يا رسول الله أكل ملي، وأفني

شبا بي، ونشرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برأت
حتى نزل جبريل بقوله تعالى: (فَادْعُ سَمِيعَ اللَّهَهُ قَوْلَ الْسَّمِعِ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا
وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهَهِ وَاللَّهَهُ يَسْمَعُ تَحَادُرَ كُمَا إِنَّ اللَّهَهَ سَمِيعٌ
بَصَيرٌ) [4] ...

فالحوار إذن له أصل ثابت في منهاج الله تعالى وسنة، وهو ينطلق من تأثيرات وأحساس تجيش في النفس
لإظهار مبدأ، أو تصحيح خطأ، أو نصرة حق أو غير ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية، والمحاورة
والمناقشة والجدل الفاطق قربة من بعضها.

والحوار من أهم وسائل التفاهم بين الناس، وهو من أهم وسائل المعرفة والإقناع، مهما كانت الثقافات
والتجاهات، وكذلك من أهم وسائل الدعوة إلى الله، قال تعالى: (اَدْعُ اِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادَ لَهُمْ بِالْسَّمِعِ هِيَ أَحْسَنُ) [5].

ومن هنا كانت الصورة ملحة للقائمين على الدعوة الإسلامية أن يتقنوا فن الحوار من أجل الوصول إلى
قلوب البشر والتأثير فيها نحو الفضيلة والاستقامة على منهاج الله تعالى وقد اهتم النبي (ص) بأسلوب
الحوار، وجعل منه منهجاً في خطاباته للناس ودعوته لهم، لما له من أثر وتأثير بالغين في نفوس
المدعوين وعقولهم، ولما له من تحفيز على الطاعات وترك للمعاصي، ولما فيه من تلقين توجيه تربوي
لكل الدعاة والمربين إلى يوم القيمة.

ومن أبرز حواراته (ص) تلك التي كانت بينه وبين قومه المشركيين ما يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أن
عتبة بن ربيعة كان في نادي قريش فقال: يا عشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً
لعله يقبل بعضها فتعطيه أيها شاء وكيف عنا؟ فقالوا: بل يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فجاء عتبة
حتى جلس إلى رسول الله (ص)، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في
النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقـت به جماعتهم وسفهـت به أحـلامـهمـ، فاسـمعـ منـيـ أـعـرضـ عـلـيكـ
أـمورـاـ تـنـظـرـ فـيـهاـ لـعـلـكـ تـقـبـلـ مـنـهاـ بـعـضـهاـ، فـقـالـ رسولـ اللهـ (صـ)ـ: قـلـ ياـ أـباـ الـولـيدـ،ـ أـسـمعـ.

قال: يا بن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا
مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكنا ملكنا
عليـناـ،ـ وإنـ كـنـتـ تـرـيـدـ بـهـ رـئـيـساـ تـرـاهـ لـاـ تـسـطـعـ رـدـهـ عـنـ نـفـسـكـ طـلـبـنـاـ لـكـ الـطـبـ وـبـذـلـنـاـ فـيـهـ أـمـوـالـنـاـ
حتـىـ نـبـرـئـكـ مـنـهـ،ـ فـقـالـ لـهـ رـسـولـ اللهـ (صـ)ـ:ـ أـفـرـغـتـ يـاـ أـبـاـ الـولـيدـ؟ـ قـالـ:ـ نـعـمـ...ـ قـالـ:ـ فـاسـمعـ مـنـيـ،ـ ثـمـ قـالـ:
بـسـمـ اللهـ الرـحـيمـ (حـمـ *ـ تـَذـَرـِيلـ مـِنـ الرـَّحـِمـَنـ الرـَّحـِيمـ *ـ كـِتـَابـ فـُصـَّلـاتـ آـيـاتـهـُ
قـُرـآنـ عـَرـَبـِيـّـاـ لـقـوـمـ يـَعـلـمـُونـ *ـ بـَشـيرـاـ وـَرـَدـِيرـاـ فـَأـعـرـضـ أـكـثـرـهـُمـ فـَهـُمـ
لـاـ يـَسـمـعـُونـ...) [6]ـ،ـ وـمـصـ رسولـ اللهـ (صـ)ـ فـيـ القرـاءـةـ وـعـتـبةـ يـسـمعـ حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:
(فـَإـنـ أـعـرـضـُـوـاـ فـَقـُلـ أـرـذـرـ تـُكـُمـ صـَاعـقـَةـ مـِثـلـ صـَاعـقـَةـ عـَادـ وـَثـَمـُودـ) [7]ـ،ـ
فـأـمـسـكـ عـتـبةـ بـفـيهـ وـنـاـشـدـهـ الرـحـمـ أـنـ يـكـفـ عـنـ القرـاءـةـ،ـ وـذـلـكـ خـوفـاـ مـاـ تـضـمـنـهـ الآـيـةـ مـنـ تـهـيـدـ.

ثم عاد عتبة إلى أصحابه، فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورأي أني سمعت قوله ما سمعت بمثله قط، وإنما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معاشر قريش أطیعونی وخلاّ وابن هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فواما ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتهم بغيركم، وإن يظهر على العرب فملکكم وعزمكم.

قالوا: سحرك وإنما يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة، فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان الذي يأتيه رئيساً من الجان.

فقال رسول الله (ص): ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن إنما بعثني إليكم رسول الله، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه إلى أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وبهذا ندرك أنَّ الحوار وسيلة فاعلة في حياة النبي (ص) وهو الأسلوب الأمثل الذي كان يؤثر به في نفوس أعدائه، يستدرجهم بهذا الحوار حتى يصل بهم إلى القناعة والاتباع.

وإنَّ الحوار الذي وقع في صلح الحديبية بين النبي (ص) ورجالات من قريش يمثلون وفوداً للتفاوض مع النبي (ص) وكان على رأسهم بديل بن ورقاء الخزاعي، ومنهم عروة بن مسعود، ومنهم سهيل بن عمارة الذي كتب الصلح مع النبي (ص)، كل ذلك قد مثل فتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين.

وانظر كيف حاور الرجل الذي جاء يستفتيه عن امرأته وقد ولدت غلاماً أسود، فأنكر ذلك فقال له النبي (ص): ألك إبل؟ قال: نعم، قال: فما لونها؟ قال: سود، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنت له ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرقه، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرقه.

وإنَّ الأمثلة من سيرته (ص) كثيرة لا حصر لها، والمقام لا يتسع لمزيد من نماذج الحوار التي كان يمارسها المصطفى في كل الميادين والآفاق، وعلى كل الأصعدة سواء في دعوته أو معاملاته أو أساليبه إقناعه، سواء مع أصحابه أو أعدائه، سواء في السلم أو الحرب، سواء في الرضا أو الغضب.

- أدب الحوار:

إنَّ للحوار آداباً لابد من تحقّقها أثناء الحوار، لأنَّ الحوار لا يمكن أن يكون ناجحاً ومثمراً إلا إذا توفرت آدابه.

وستنفق على بعض هذه الآداب والأخلاق التي يتحلى بها الحوار الهدف والأدلة على ذلك من وحي كتاب الله والسنة النبوية وسيرته العطرة، مع عدم الوقوف على كل دليل لأنَّ ذلك يطول ذكره، ولا ينتهي حصره والمقام يقتضي الإيجاز في نقاط، وإنما الموقف والهادي إلى صراط مستقيم، ومن هذه الآداب والأخلاق ما يلي:

1. الإخلاص في النية من أجل الوصول إلى الحق: فلا بد أن يتحلى المحاور بنية خالصة لنصرة دين الله، وألا

يقصد بحواره المباهة والمفاخرة والانتصار للذات أو حب الظهور والشهرة، يقول عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى..." ([8]).

2. البعد عن التعصب للرأي: فلا بد أن يكون المحاور ذا رأي من يميل مع الحق ولو كان مع الخصم، وهدف الحوار أصلًا هو الوصول إلى الحق ومعرفة الحقيقة، فيكون التعصب للرأي ضرراً محضاً لا خير فيه، ولن يحقق هدف الحوار.

3. احترام شخصية المحاور ورأيه: وذلك من خلال الانتباه لكلامه والإصغاء إليه والابتعاد عن مقاطعته، وعدم اللجوء إلى تجاهله، أو الانشغال بشخص آخر، أو اللجوء إلى النقد الشخصي، مع ضرورة احترام رأيه، وعدم الإساءة إليه، وعدم الجواب أو الرد أو التعقيب أو المداخلة إلا بعد أن ينتهي الآخر من رأيه.

4. الحرص على القول المذهب بعيداً عن الطعن والتجريح: فمطلوب من المحاور أن يكون مهذباً في ألفاظه، لأنَّ الكلمة الطيبة صدقة، وهي دليل على حسن النية عند المحاور، كما أن بذاءة اللسان أو التجريح يفسد جو الحوار الهداف، يقول عليه الصلاة والسلام: "ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء" ([9]).

5. التزام الطرق الإقناعية الصحيحة: وذلك بالبعد عن المغالطات والمراء والسخرية، وعلى المحاور ألا ينما قض نفسه من خلال أدالته، بل عليه أن يستعمل الحجة القوية المقنعة، مع اتباع المنهجية العلمية في الحوار وذلك بوضوح هدفه قبل إجرائه، والبدء في العموميات، والانتهاء بالجزئيات، مع اتساق الأفكار التي يعرضها، وإصلاح المنطق وتهذيبه، والتسليم بالأمور التي هي من المسلمين، مع قبول النتائج التي تم التوصل إليها بالأدلة القاطعة.

يقول عليه الصلاة والسلام: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً" ([10]). وقال تعالى على لسان موسى (ع): (وَأَخْيَ هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنْهُ لِسَانًاٌ فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) ([11]).

6. اعتماد الهدوء والروية والتحلي بالحلم والمصبر والوقار: وهذا يعني عدم التسرع والانفعال والغضب بسبب وبدون سبب، فهذا يعثر الحوار ولا ينجحه، فالحلم والمصبر يعني التجاوز عن أخطاء الخصم والصفح عنها وعدم مقابلتها بمثلها، ولا يجارى خصمه في الشغب، بل يعتمد الهدوء والوقار.

يقول عليه الصلاة والسلام: "ليس الشديد بالصرامة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" ([12]).

7. اعتماد المحاورة بمودة واحترام وترفق: فالملودة والاحترام يخلقان جواً من الحوار الهداف البناء، أما استصغر الخصم المحاور والتهاون به يولد جواً من العنف وردود الفعل التي لا تحمد عقباها، وإذا تعكر مزاج المحاور فقد فسد الحوار، وانقلب ذلك إلى الطعن والتجريح والإساءة، ولذلك فقد رغب النبي (ص) في الرفق، فقال: "إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه" ([13]).

8. الحرية في إبداء الرأي مع حق الدفاع عن وجهة النظر: وهذا حق للطرفين المתחاربين لأنّه لا يجوز لأحدهما أن يمثل إرها باً فكريباً يضيق به آفاق الحوار، ويقتل المواهب والملكات، ولذا يجب تجنب محاورة ذي هيبة لأنّ ذلك يؤثر على روح الحوار وغايته المرجوّة.

9. العدل والإنصاف والتزام الصدق: فلا بد للمحاور حتى يحقق هدفه بنزاهة وموضوعية أن يتحلى بالعدل والإنصاف والصدق مع نفسه ومع خصمه، ولا يخضع لتأثير هو الذات أو الحزب أو الجماعة، قال تعالى: (وَإِذَا قُتِّلُمْ فَاعْدِلُوا وَلَاوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) ([14]).

بل يجب على المحاور إن ظهر الحق على لسان خصمه أن يأخذ به ولا تأخذ العزة بالإثم، ويرفض هذا الحق، وقد قال الرسول (ص): "الكبير بطر الحق وعمّط الناس" ([15]) . . .

10. أن يكون المحاور عالماً بموضوع الحوار: فلا يدفعه الجهل والمزاج في سباحة بحر لم يُكلّف بسباحته، فذلك يؤدي إلى هلاكه في العاجل والآجل، وقد يضيق الحق بسبب جهله بموضوع الحوار، فالعلم بالشيء بصيرة به، وقد قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَرَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَرَنَا مِنَ الْمُمْشِرِكِينَ) ([16]).

11. وقبل الختام "الحوار لا يفسد للود قضية": عرفنا من قبل أنّ الحوار أمر مشروع، وإذا تم الالتزام بكل آداب الحوار سابقة الذكر فإنّ القلوب تبقى على صفائها وودها، أما إذا تم التجاوز باستفزاز الخصم والتهكم به وبرايه وأدنته، ولم تقم لذلك وزناً فسيقا بذلك بمثل ذلك، ومن هنا تفسد المودة وتسوء العلاقة وتنتقطع الأواصر، ويغيب هدف الحوار وهو بلوغ الحق، لذا يجب أن يبقى هدف الحوار قائماً لا يغيب عن جو الحوار، ونية الإخلاص ونصرة دينه هي الغاية العظمى.

وفي الختام: نقف مع نتائج البحث وثمراته وذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الحوار حاجة علمية وضرورية فكرية بهدف اللحاق بركب العالم المتقدم.

ثانياً: غياب الحوار أو رفضه يعني زيادة في التخبط والتخلف والعزلة.

ثالثاً: الحوار الموضوعي يمنع من بروز ظاهرة التطرف السياسي أو الديني.

رابعاً: إنّ الحوار ليس حلبة ملاكمة يطرح المحاور زميله أرضاً وذلك بالسخرية منه أو التطاول على شخصه.

خامساً: إنّ الحوار يعني التخلّي عن سياسة "أنّ الآخر مخطئ وأنا الحق الوحيد".

سادساً: فتح أبواب الحوار بمضواطه ومنهجه العلمي يحقق أهدافاً وغايات بناء.

سابعاً: الحوار أسلوب قرآنی نبوی ناجح ومثير يأسر القلوب ويجعلها نحو الفضيلة.

ثامناً: للحوار آداب وأخلاق لابد من التعرف عليها والتحلي بها؛ لأنّها مستنبطة من واقع السنة النبوية ومدعمة ببعض الآيات القرآنية.

([1]) سورة هود: الآيات (118، 119).

([2]) سورة الكهف: من الآية (24).

([3]) سورة الكهف: الآية (37).

([4]) سورة المجادلة: الآية (1).

([5]) سورة النحل: من الآية (125).

([6]) سورة فصلت: الآيات (1 - 2 - 3 - 4).

([7]) سورة فصلت: الآية (13).

([8]) صحيح البخاري ج 1 ص 2.

([9]) جامع الأصول ج 1 ص 757، رقم (8430).

([10]) سنن أبي داود ج 4 ص 253.

([11]) سورة القصص: الآية (34).

([12]) صحيح مسلم ج 4 ص 2014، رقم (2609).

([13]) صحيح مسلم ج 4 ص 2004، رقم (2594).

([14]) سورة الأنعام: من الآية (152).

([15]) صحيح مسلم ج 1 ص 93، رقم (147).

([16]) سورة يوسف: الآية (108).